من تراب الطريق!

(٢٨٨) المنبطحون بلا نداء ! (*)

فى المعارك الحربية، أو التدريبات العسكرية، يتنادى الجنود بالانبطاح تجنبا لطلقات النيران أو شظايا القنابل والمدافع .. ولكن هناك فى الحياة السياسية من يبادرون بالانبطاح بلا نداء .. لا ينتظرون من أصحاب السلطة والصولجان أن ينادوهم أو يحثوهم على الانبطاح، فقد أضمروه وأزمعوه واتخذوه وسيلة للزلفى والنفاق والصعود !

يتلاقى المنبطح والمبذول له أو لهم الانبطاح، يتلاقون على الكذب وإدمان معانقة الخطأ .. مرد هذا إلى فقدان الصدق، والتراضى على ذلك باتفاق أو بتوافق كالاتفاق .. يعلم الباذل المنبطح أنه نحّى جانبا كرامته وعقله وفكره وفهمه وإرادته، وأحل محلها أضدادها .. عن اقتناع يعرفه بينه وبين نفسه مهما واراه أو حاول مواراته عن عيون الناس!.. ويعلم المبذول له الزلفى نفاقاً وانبطاحاً أن " البضاعة " المقدمة إليه هى المطلوبة، وهو لا يريد سواها.. يريد من المتزلفين ما يجرئه على ما يريد لا تقويته على ما يجب!.. والمتزلف المنبطح قد حسم أمره فى دنيا السياسة والمغالطات، وعرف أن الصدق مع النفس ومع الوطن بضاعة بائرة، وأن النافع المفيد لمآربه وأغراضه هو ما يكرس وجوده واستمراره وصعوده، حتى وإن أظلمت الدنيا وأقفرت من الصدق والحق !

أشر ما فى هذا الانبطاح الذى شاع وذاع، أنه لا يقتصر على تغييب عقل وفهم المنبطح والمبذول له، وإنما يحصد كل يوم إقبالاً لمجاراته ممن

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٢

أدركوا أنهم ينالون بالرياء والنفاق والوصولية، ما لا ينالـه بالجهد والصدق أصحاب العقل والحق والكرامات .. معنى هذا أن يفقد المجموع - أو الأمة إن شئت - العقل الجمعى، وتنهار القيم المجتمعية، وتتوارى المبادئ ومعها الحق والجمال، ويحل محلها القبح والدمامة والتراضى على اعتناق الوهم والكذب ومجاراة التافه والرائج، والإقلاع عن التأمل والتفكر والفهم والجد، والاستسلام لما يُراد ويفتح مراقى الصعود حتى وإن كان من بعده الطوفان على الوطن الكبير أو على المحيط التشريعى أو التنفيذى أو الأمنى أو الإدارى أو النقابى أو الاجتماعى أو الثقافى أو الرياضى !

لن تخطئ قط اكتشاف حقيقة الانبطاح ومسالك المنبطحين .. فدوائر التراضى على ذلك دوائر ضيقة مهما بدت متسعة للغارقين فيها .. أنت والكل يعرف وهم يتخيلون وهماً أن أحداً لا يعرف .. ولكن المصيبة أن ينطبع الأداء العام والأداء الخاص والخاص العام بهذا الطابع، فيتوارى الصدق والحق جبراً أو قنوطا ويأسا .. وتدور الأمور هنا وهناك بهذا المنطق الضرير الذى يحرم الفرد والمجموع والأداء من عناصر الحق والصواب !

وبين هواة أو محترفى الانبطاح، ودوائر المتلقين للرياء المبذول، تراضى الطرفان على لغة عالية زاعقة للخطاب، تعتنق الشعارات وتستتر بها عورات الواقع المرير الذى تراضوا فيه على اغتيال الحقيقة، واعتناق وتصدير الوهم، والتلاعب فى قواميس المفردات اللغوية لإطلاق مسميات مستعارة تدارى الرياء والنفاق والكذب والوصولية والتفاهة والانتهازية واللصوصية والخيانة، فتطلق عليها بدائل تصدرها للناس على أنها الحيطة والحصافة والسياسة والتكتيك والمهارة والشطارة والمواراة والمداورة التى لا تستغنى عنها سياسة الأمور التى لا تحتمل سذاجة البسطاء، ولا تفتح أبوابها ومسالكها ومراقيها إلاّ لأصحاب المهارة المنتهزة التى تستغنى بما تريده وتحققه لنفسها عن مصالح وحقوق الأوطان !

أمثال هؤلاء المنافقين الكبار، عشاق الانبطـــاح، تلفـــاهم يتـــصدرون الصفوف أو المواقع فى الجنازات وسرادقات العزاء وحفـــلات الأفـــراح، يقفون أو يجلسون أو يمشون كالطاووس، وكأنهـــم يقولـــون لعـــباد الله : " يا دنيا اتهدى ما عليك قدى "!

لا الدنيا ستنهدم لهم، ولا التاريخ سيفسح لهم .. أمثال هـــؤلاء يعـــانون الوحدة والعزلة والمرارة بعد زوال أيام الإقبال وضياع الوهج الكـــاذب .. حين يستعرضون تاريخهم الذى كانت تمازجه الأهازيج ودقات الطبول، فلا يرون إلاّ سكاكين فى أحشائهم بعد أن انكشف عنهم الغطاء، ولم يبق لهـــم عمل طيب يتماسكون بذكراه فى سنوات الأفول والانعزال !

فرصة هؤلاء المتزلفين فى النمو السرطانى المريض، أن يغيب الوعى العام مع غياب قنوات التبصير المبرأة من هوى الانحيازات والتحالفات، أو المنقادة لأصحاب النفـــوذ والـــصولجان، أو المتابعـــة لأصـــحاب المـــال والثروات، أو الساقطة فى بئر الرشاوى والعطايا، أو محترفى " التجـــارة بالرأى " لقاء الثمن الذى تتعدد أنواعه وأشكاله بين طلب الرضاء والترقى، أو تحاشى المطاردة والنكال،أو فتح جيوب الأكفان لتلقى الجعول والهبات!!

أيها السادة لقد اختلط الحابل بالنابل فى مـــصرنا المحروســـة بفعـــل تزييف حملة المباخر الذين يفردون العناوين الكبار والـــصفحات الطـــوال للحديث عن تزوير بعيد بعيد هناك فى إيران، ويضنون بسطور ضئيلة عن تزوير قريب قريب يجرى هاهنا فى وطننا، تزيف به الإرادات، ويتعـــانق مع الانبطاح فى إقامة صورة كاذبة تجافى الواقع المر الذى انطوت عليـــه قلوب المخلصين من أبناء الوطن !!!